الباب الرابع
فى أحكام عامة تتعلق بالموتى

اختلاف العلماء فى وصول ثواب القرب المهداة الى الموتى

فى هذا الباب أصول قاطعة وأصول ظنية. فمن الأصول التى تنفى وصول أى قربة إليهم قوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه) (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) إلى غير ذلك من الآيات التى فى معنى ما ذكر .

ومن السنة قوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى » والميت لا نية له .

فاذا قطع النظر عما ورد فى غير تلك الآيات وأمثالها ، دلت هذه الآيات التى سقناها وما فى معناها من الآيات على أنه لا يصل شىء إلى ميت من حى ، دعاءاً كان أو صدقة أو غيرهما ، كالحج وقراءة القرآن ، لأن النية فى تلك القرب مفقودة من الموتى .

إلا أنه قد وردت آيات وأحاديث تدل على وصول بعض القرب إلى الموتى ، وهى قسمان: مجمع عليه ومختلف فيه

وقبل أن نتكلم عليها ننبه إلى أصل مهم ، وهو أنه لايجوز ضياع نص بقياس . وعلى هـذا فالحق العمل بهذه الأصول النافية لوصول ثواب عمل الإنسان لغيره ، وحمل النصوص الواردة فى وصول بعض القرب على تخصيصها للنصوص النافية مطلقاً جمعاً بين الأدلة . فيقتصر فى وصول القرب على ماوردت به النصوص دون قياس شىء عليه . لأن القياس ظنى ، فلا يجوز معارضة القاطع من النصوص به .

إذا عرفت هذا فنقول :

إن مما أجمع المسلمون على وصوله إلى الموتى الدعاء لهم ، سواء فى ذلك الأقارب أو غيرهم ـ ومن النصوص فى ذلك قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن

التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) والمراد من التوبة فى الآية الأولى التوبة من الشرك .

ومنها قوله تعالى حاكيا عن نوح (رب اغفرلى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات) فانه يعم الأحياء والأموات .

وقوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وكذا قول إبراهيم عليه السلام (ربنا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وفى الوالدين خاصة قوله تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

وفى الحديث « اللهم اغفر لحيِّنا وميتنا » وفيه « اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم » .

هذا وقد شرع الله صلاة الجنازة وشرع فيها الدعاء للموتى وفى خصوص النبى صلى الله عليه وسلم أمرنا الله أن نصلى عليه ، أى ندعو له بقوله (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) أى ادعوا له ـ كما أمرنا فى صلاتنا ـ أن

نصلى عليه وعلى آله ، وهم جميع المؤمنين من أمته أحياءاً وأمواتاً .

وفى الصحيح « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » لكن لما كان الأمر بالدعاء للوالدين فى القرآن عاما يتناول الداعى الصالح وغيره ، كان تقييد الولد بالصالح فى الحديث غير مراد ، ولعل الحكمة فى تقييده فى الحديث أن دعاء الصالح أقرب للاجابة من غيره . وإنما جاز دعاء الأجانب من المؤمنين لعموم النصوص المتقدمة .

ومنها الصيام عن الموتى ، وقد أجمعوا على عدم صحته من الأجانب ، واختلفوا فى صحته من الأقارب . والحجة فى وصول ثوابه إليهم وإجزائه عنهم إذا ماتوا وعليهم صيام قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » وأكثر العلماء على أنه لا يصح الصيام عنهم ، وتأولوا الحديث بأن المراد دفع الفدية عنهم ، وهو خلاف الظاهر ، وإن كان مذهب الجمهور .

ومنها الحج عنهم ، فقال مالك : لا يجوز الحج عنهم ، ولا ينفعهم ذلك ـ وأجاب عن الأحاديث الواردة فى جواز

الحج عنهم كحديث « حجي عن أبيك » بأن الحج فُرض وهو عاجز عن السفر ، وهذا بخلاف من استطاع قوياً ثم قصر حتى مات ـ يدل على هذا قولها فى السؤال : يارسول الله إن أبى قد أدركته فريضة الحج وهو شيخ عاجز لايستطيع السفر ، وهو جواب قوى .

ومنها الصدقة ، وقد أجمعوا على وصول ثوابها إذا كانت من الفرع للأصل وعكسه لورود النص بها ـ أما من الفرع فانها من البر بالآباء بعد الموت ، ولأن الفرع من سعى الأصل ، ولحديث « أنت ومالك لأبيك » .

وأما من الأصل للفرع فدليله أن الله تعالى يكرم الآباء يوم القيامة برفع درجات أبنائهم حتى يساووا آباءهم ، إتماما للنعمة على الآباء بقرب الأبناء منهم ؛ حتى لا يكون فى الجنة مايكدر نعيمهم عليهم ببعد أبنائهم عنهم. ولرسول الله صلى الله عليه وسلم شفاعة فى ذلك . قاله شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى الكلام على انتفاع الانسان بعمل غيره فى حدود النصوص ، وذكر تأييداً لذلك قوله تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) كما استدل على انتفاع الأبناء بعمل الآباء بقوله تعالى (وكان أبوهما صالحاً)

وهو قوى . وأما من بقية الأقارب ومن الأجانب فالحق عدم وصول ثواب الصدقة منهم لعدم ورود نص صحيح بذلك ، فيقتصر على مورد النص .

ومنها وصول ثواب قراءة القرآن للموتى،وقد اختلفوا فيه ، فقيل تنفعهم القراءة ، وقيل لا تنفعهم ـ وحجة القول الأول وهو أقوى ماورد فيها حديث « اقرأوا يس على موتاكم » وحديث قراءة سورة الإخلاص ، وما زال من عمل المسلمين أن يقرأوا القرآن على الموتى .

وحجة القول الثانى أنه لم يرد عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ولا عن التابعين لهم باحسان أنهم فعلوه ولا أمروا به ، وأجابوا عن حديث « اقرأوا يس على موتاكم» بأن فى إسناده مجهولين على التوالى هما أبو عثمان وأبوه ، ومثله لا تقوم به حجة ولا يبنى عليه حكم ، ولم يرو إلا من طريقهما ، كما قاله الحافظ فى التلخيص من كتاب الجنائز .

وحديث سورة الاخلاص لايعرف له إسناد . وأجابوا عما يفعله الناس من قراءة القرآن على الموتى عند القبور وغيرها بأنه عمل حادث بعد إجماع الصحابة على تركه وعدم الأمر به ، وهم أقرب الناس إلى الامتثال .

وكل من روى عنه من الأئمة جوازه روى عنه منعه، وحتى لو اتفقوا على جوازه فان النصوص القاطعة فى عدم انتفاع الإنسان بعمل غيره تمنعه.

حياة اهل القبور

اعلم أن حياة أهل القبور صورة مصغرة لحياة أهل الجنة والنار يوم القيامة ، ولذلك كانت أحكامها من باب الغيب الذى لامجال للعقل فيه، وإنما تؤخذ من الدليل السمعى وحده وهو الكتاب والسنة — وإذا ثبت عذاب القبر وهو المختلف فيه بين أهل السنة وغيرهم من الفرق التى يخشى عليها — ثبت مايلقاه أهل النعيم فى القبور — وقد بين الكتاب كما بينت السنة أن عذاب القبر حق ، وأن أهله متفاوتون فيه بحسب جرائمهم وأعمالهم .

فمن الآيات المبينة لعذاب القبر قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) فإن الآية تدل على أن الظالمين من وقت الموت يجزون عذاب الهون

ولا يمكن أن تقول الملائكة لهم عن يوم القيامة إنه يوم موتهم الذى يجزون فيه بالخلود فى جهنم ، فلا محمل لها إلا على عذاب القبر ، ولعلها أصرح آية فى القرآن فى إثباته لعدم احتمالها لوجه غير الذى قلناه — ولا يجوز حمل العذاب فيها على غير عذاب التحريق بالنار التى تصيبهم فى قبورهم لوروده فى آية الأنفال (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) ومثل هاتين الآيتين آية براءة (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) يعنى عذاب جهنم فى الآخرة . وأما التعذيب مرتين فاتفق مفسرو الصحابة ومن بعدهم من السلف على أن المرة الأولى فى الدنيا بقتلهم ورقهم وإذلالهم ، وأن المرة الثانية هى عذاب القبر .

ومثلها قوله تعالى فى آل فرعون (وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) — أى فى برزخهم مدة الدنيا ، بدليل قوله تعالى بعدها (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

هذا بعض مايدل على ثبوت عذاب القبر من القرآن الكريم .

وأما السنة فقد تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عذاب القبر حق ، وأن مايعذب به أهل القبور ليس من جنس مايعذب به أهل الدنيا ، لا فى ناره ولا فى ألمه ، وأنه لايختص بمن دفن فى قبر ، بل يلحق الميت المستحق للعذاب ولو أحرق وذرّ فى الهواء فى ريح عاصف ، وإن كنا لانرى بأبصارنا ، ولا نسمع بآذاننا ، ولانحس بأبداننا شيئاً من ذلك ، لأن عالمنا غير عالم البرزخ ؛ وأحكام دارنا غير أحكامه ، بل إن فى عالمنا هذا من الكائنات والأحداث مالا سبيل لنا إلى العلم به ، فضلا عن عالم البرزخ .

ومن هنا يعلم أن ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حياة البرزخ من النعيم والعذاب لايحيله عقل سليم ، لأن عقولنا تقصر عن إدراك مافى عالمنا، فكيف تدرك ماغيب عنا؟

لهذا كان من الواجب الايمان بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب دون تعرض إلى معرفة حقائقه (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) ولو شاء الله

لأسمعنا أصوات أهل القبور ، وأرانا مأثم فيه، كما أسمع رسوله صلى الله عليه وسلم كثيرا من ذلك .

أخرج مسلم وابن أبي شيبة عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت أن تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال « من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل : أنا ، فقال : متى مات هؤلاء ؟ فقال : ماتوا في الاشراك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه . ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر » الحديث .

والأحاديث في عذاب القبر كثيرة عن جماعة من الصحابة ، منها عند الشيخين عن عائشة ، وعن أبي سعيد عند أحمد وغيره ؛ وعن أنس عند مسلم ، وعن أبي أيوب عند الشيخين ، ومثله عن ابن عباس . وروى عن أبي بكر عند ابن ماجه ، وفيه أيضاً عن ابن عمر وعبد الرحمن بن حسنه وأبي أمامة وميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلى بن سبايه ويعلى بن قرة ، وأم بشير وابن مسعود وغيرهم

رضى الله عنهم أجمعين — ولهذا كان عقيدة من العقائد التى لا يتم الايمان إلا بها .

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أن من نعيم القبر أن يعرض على المؤمن مقعده من الجنة فى قبره بالغداة والعشى ، وأن يفسح له فيه مد بصره ، وأن يفرش من الجنة وأن يصحبه عمله فى أحسن صورة رجل يؤنسه إلى يوم القيامة

وكما ثبت عذاب القبر ونعيمه ، ثبت السؤال فيه من منكر ونكير عن التوحيد والرسول والدين . وجمهور العلماء من السلف على أن لغة السؤال هى لغة المسئول ، وإن كان ظاهر الحديث أن السؤال يكون بالعربية .

والعذاب والنعيم للروح ، والبدن تابع لها فيهما ، عكس شأن الدنيا ، وللروح والبدن دون تبعية أحدهما للآخر فى الآخرة .

وأما كيفيتها فلا يعلمها إلا الله تعالى ، غير أن الأحاديث تقول إن من عذاب القبر أن يضرب المسئول بمقمعة من حديد يصير على أثرها ترابا ، ثم يعود وهكذا . ومنها ضغطة القبر وتضييقه على صاحبه وظلمته .

وجاء فى حديث الإسراء أن النبى ﷺ شاهد أنواعا

من عذاب القبر على أعمال لأصحابها ، منها قذف آكل الربا بحجر فى فيه ، وسباحته فى بحر من دم . ومنها عذاب أهل الزنا من الرجال والنساء فى تنور من نار . ومنها عذاب المتثاقلين عن الصلاة بدق رءوسهم بالأحجار ، وعذاب الكذابين بقرض ألسنتهم وشق شفاههم بمقاريض من نار. ولله فى خلقه شئون نؤمن منها بما أخبرنا به رسوله ﷺ فى هذا الباب ، ونترك حكم ماسوى ذلك إلى الله عز وجل فانه لاخير فى الخوض فيه ، بل فيه كل الشر والفساد .

وإنما حجب الله حياة البرزخ وما فيها عن أهل الدنيا لئلا يتعطل فيها العمل الذى من أجله خلقها وسخرها لمن فيها كما تشير إلى ذلك أحاديث صحيحة ، منها حديث زيد بن ثابت السابق ، ومنها حديث الجنائز الذى رواه البخارى ، وأن الميت يصيح فوق نعشه يسمعه كل شىء إلا الإنسان، ولو سمعه لصعق .

ومن فوائد إخفائه عن أهل الدنيا أن يؤمن به من هدى الله فيما يؤمن به من الغيب ، ويضل فيه من ضل . وتدبر قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله

مايشاء) فان هذه الآية نزلت فى حياة أهل القبور ، كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة فى سبب نزولها .

مبحث سماع الموتى واختلاف العلماء فيه

اختلف أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم إلى اليوم فى سماع الموتى ،فذهب إلى المنع من الصحابة عائشة رضى الله عنها ، ومن التابعين قتادة بن دعامة وأكثر التابعين ، ومن أتباع الأئمة الأربعة أكثر الحنفية والحنابلة ، كما حكاه الكمال بن الهمام عن أكثر الحنفية ، فقال إنه مذهب أجلة علمائهم ، وكما حكاه القاضى الكبير فى أكبر كتبه وقال هو اختيار أكثر أصحابنا أى الحنابلة . واستدلوا على ذلك بقوله تعالى (إنك لا تسمع الموتى) وبقوله (وما أنت بمسمع من فى القبور)وقالوا هذا قاطع متواتر ظاهر فى المنع ، ظاهر فى عدم سماع الموتى ، فلا يرد إلا بقاطع مثله .

وذهب أكثر الشافعية والمالكية وبعض الحنابلة وأكثر الصحابة والتابعين إلى أنهم يسمعون ، واستدلوا على ذلك بما فى الصحيحين أنه ﷺ كلم طائفة من قتلى بدر

بعد إلقائهم فى بئر من آبارها ، منهم أبوجهل بن هشام ، وأمية بن خلف وعتبه بن ربيعة ،فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله أتكلم أجساما لا أرواح فيها؟ فقال رسول الله ﷺ « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » وما أخرجه ابن منده من مسند عبيد بن مرزوق مرسلا أنه صلى الله عليه وسلم مرّ بقبر أم محجن وكانت تقمّ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى العمل وجدت أفضل ؟ قالت : قمّ المسجد . أى تنظيفه » فقيل له صلى الله عليه وسلم أتكلم ميتا يارسول الله ؟ فقال «والذى نفسى بيده ماأنتم بأسمع منها » وبما أخرجه الحاكم وصححه والبيهقى وغيرهم أنه صلى الله عليه وسلم مر بقبر فصلى على صاحبه ثم كله وسلم عليه فردعليه. ثم قال لأصحابه «ما من أحد يمر بقبر أخيه كان يعرفه فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه » وقالوا هذه الأحاديث تدل على أن الموتى يسمعون ، وأجابوا عن الآيات بأن المنفى فيها سماع الانتفاع لا مطلق السماع ، جمعا بين الأدلة .

هذا ملخص وجيز لاختلاف العلماء فى سماع الموتى .

وقد أجاب المانعون عن هذه الأدلة بأن حديث الصحيحين قد أنكرته عائشة رضى الله عنها وقالت: ماقال النبي صلى الله عليه وسلم ما يقول ابن عمر ، ولكنه قال « انهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » وأجابوا عن حديث ابن منده بأنه مرسل لا يصح الاحتجاج به ، وعن حديث الحاكم وغيره بأنه غير صحيح .

قال الحافظ ابن رجب : تصحيح الحاكم محكوم عليه عند أهل الحديث بعدم الاعتبار ، وهو كما قال ، فقد صحح كثيراً من الأحاديث الموضوعة كما تقدمت الاشارة إليه .

والحق أنهم لا يسمعون إلا السلام عليهم ، كما ورد به النص ، وأن سماع قتلى بدر كان خصوصية له صلى الله عليه وسلم إذا صح ما قاله ابن عمر ومثله بقية الروايات الواردة فى ذلك . وقد روى البخارى بعد أن ساق الحديث وساق إنكار عائشة على ابن عمر من رواية أنس عن أبى طلحة عن عمر روى أن قتادة قال: أحياهم الله لنبيه فسمعوا كلامه .

والحق أن هذه الأحاديث كلها لا تعارض ظاهر القرآن وأنه يقتصر على ما ورد به النص ولا يعم فى سماعهم، لقوله

تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم) فان لو تدل على امتناع سماعهم ، مع قوله تعالى (وهم عن دعائهم غافلون) بعد نفى استجابتهم لدعاء من يدعوهم إلى يوم القيامة .

حياة الانبياء

إعلم أن الله تعالى قد نص فى الكتاب الكريم على حياة الشهداء وأنهم عند ربهم يرزقون كما سيأتى تفصيله . وإذا ثبت ذلك فى الشهداء فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام من باب أولى ، لأن الحياة الطيبة فى القبور بعض مايصيب المتقين من النعيم ، وهم أفضل المتقين . وقد صنف الامام البيهقى كتابا سماه حياة الأنبياء بعد انتقالهم إلى الدار الآخرة

وقد اختلفت الأمة فى وجود الأنبياء فى قبورهم ، فأكثر العلماء على أنهم موجودون فى قبورهم وأحياء فيها وقد أورد البيهقى من السنة فى الاستدلال على حياتهم بأرواحهم وأجسادهم حديثين هما أصح ما ورد فى حياة الأنبياء . الحديث الأول حديث أصحاب السنن وأحمد أن

النبي ﷺ قال « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » الحديث الثانى « ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى حتى أرد عليه » قال البيهقى وهذا أصح شىء فى الباب .

فأما الحديث الأول فقد ضعف البخارى إسناده ، ولهذا لم يثبته فى صحيحه وكذا مسلم ، ولكنه لا يخرج عن كونه حسنا صالحا للاستدلال به على أن الأرض لا تأكل أجسادهم .

وأما الحديث الثانى فيدل على أن الأنبياء ليسوا أحياء فى قبورهم ، لأن رد الروح يقتضى عدم وجودها . وقد أطال السيوطى كلامه فى هذا الحديث وأجاب عنه بخمسة عشر جوابا أصحها ما نذكره وقد ارتضاه البيهقى فى حياة الأنبياء وهو أن قوله « إلا رد الله علىّ روحى » جملة حالية على تقدير قد ، والمعنى : ما من أحد يسلم علىّ إلا وقد رد الله علىّ روحى إلى آخره . لكنه لا يتم هذا الجواب إلا بجعل هذه الحال لازمة للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولا مانع من التزام ذلك والاستدلال عليه بحديث

أصحاب السنن « أن الله وكل بقبره ملكين يبلغانه صلاة وسلام من يسلم عليه من أمته »

وأما غير الأنبياء والشهداء فحياتهم طفيفة بمقدار مايدركون العذاب أوالنعيم . وأما بلاء أجسام غير الأنبياء فيدل عليه حديث الصحيحين « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب » .

وقد اشتهر بين الناس أن الأولياء والعلماء والمؤذنين لا تبلى أجسامهم ، وليس لهذا مستند صحيح .

والحياة الثابتة للأنبياء وغيرهم من أصحاب القبور لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى ، وهى على كل حال مخالفة لحياة الدنيا مخالفة تامة .

مستقر الارواح

بعد مفارقة الاجسام

لما كان هذا الموضع من باب العقائد، لم يكن للرأى مجال فيه، ووجب الرجوع فى معرفته إلى النصوص من الكتاب والسنة.

فينبغى أن يعلم هنا أن الأرواح أصناف مختلفه متفاوتة المنازل فى درجات العذاب والنعيم، كما تتفاوت الأجسام يوم القيامة بعد بعثها فيها. قال تعالى (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون).

فأرواح النبيين أعلاها، ثم أرواح الصديقين، ثم أرواح الشهداء، ثم أرواح من عداهم. وقد بين سبحانه أن أرواح الشهداء عند ربهم يرزقون، وأنهم يستبشرون بمن يموت بعدهم من أهل الجنة إذا تقابلت أرواح المؤمنين ممن بعدهم بأرواحهم فأخبرتهم عن أقاربهم من المؤمنين وأنهم يعملون صالحا، كما قال تعالى (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا

بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين)

وإذا ثبت أن أرواح الشهداء أحياء ، وأنها ممتازة حيث تسرح فى الجنة فى حواصل طيور خضر هى لها كالمراكب لأهل الدنيا ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ؛ هى كالبيوت لأهل الدنيا ، كما وردت السنة الصحيحة بذلك فى تفسير قوله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) ثبت لمن هم أعلى منهم منزلة من النبيين والصديقين نعيم لأرواحهم أعلى من نعيم أرواح الشهداء — وكان مستقر أرواح هؤلاء الفرق الثلاثة هو الجنة .

وأما أرواح بقية المؤمنين فقد دلت السنة على أنها مختلفة المستقر ، فمنها مايكون داخل الجنة ، يأخذ منها رزقه فى أوقات مختلفة ، ومنها مايكون محبوسا عن الجنة كأرواح الذين ماتوا وعليهم ديون حتى تقضى عنهم ؛ ثم تكون بعد ذلك فى الجنة إلى يوم القيامة .

فعلم أن مستقر أرواح المؤمنين هو الجنة ، إلا أصحاب الديون

التى لم تقض عنهم، كما فى حديث البراء عند أبى داود والنسائى وأحمد، وكما فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن الإمام الشافعى عن الإمام مالك عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » وهذا الحديث لايوجد فى تحديد مستقر أرواح المؤمنين بعد موتهم وأنه الجنة أصح منه، لأن رجاله فى مقدمة رجال الصحيحين عدالة وعلما وضبطا وفضلا.

وأما مستقر أرواح الكفار. فقد نطق القرآن فيه بأنه ليس فى السماء، وأن أبواب السماء لاتفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم كما أفاده حديث البراء فى تفسير آية الأعراف وأصح ماروى فى مستقرها من أقوال السلف من الصحابة والتابعين أنه النار، حتى يبعثها الله إلى أجسادها

وما عدا ماذكرناه فى مستقر الأرواح من الأقوال والآراء رجم بالغيب.

ومنه يعلم أن مايشيعه بعض الناس من قدرتهم على

تحضير الأرواح ومخاطبتها ، إنما هو نوع من السحر زاوله القدماء قرونا متطاولة يحضرون به شياطين الموتى الذين يبقون بعدهم أحياء ، فيحدثونهم عن أمور خفية يعلمونها من مصاحبتهم للانس فى حياتهم معهم قبل موتهم .

وقد ثبت فى الصحيح أنه مامن أحد من الإنس إلا ومعه قرين من الجن ، وأنه يجرى منه مجرى الدم ، كما فى الحديث المتفق عليه ، وأنه يعلم من أسراره مالا يعلمه غيره فيحدث السحرة من الانس بما يطلبونه منه . وهذا لاريب فيه عند من وقف على النصوص فى مستقر الأرواح ، وأنه مناف لحكمة الله من الموت ، فإن الأصلح للمؤمنين أن تبقى أرواحهم فى أجسامهم ليزداد أجرهم بما يعملون من الصالحات ، كما فى حديث «خيركم من طال عمره وحسن عمله» ولا سيما الطاهرات من الأرواح ، فإن الموت يقطع عليها أجرها .

ولهذا نقطع بأن الروح لا تفارق مستقرها إلى يوم القيامة ، ولا قدرة لمخلوق على إخراجها من هذا المستقر ـ

ولا فائدة من إطالة البحث فى هذا الموضوع مادام لايؤيده نص من كتاب أو سنة .

فالقول بأن الأرواح منطاقة تطوف حيث شاءت قول مخالف للسنة بمحض الرأى ، ولقوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) الآية

ومما تقدم فى الكلام على سماع الموتى وحياتهم فى القبور نعلم أنهم لا يسمعون لمن يدعوهم ولا يستجيبون له كما قال عز وجل فى توبيخ من يسألونهم ويقصدونهم للحاجات (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير . إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) وقال (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون .أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) .

خاتمة

فى طائفة من السمعيات

السمعيُّ هو ما ورد عن الله ورسوله فى الكتاب أو السنة الصحيحة مما يجب الإيمان به على ما ورد، وعدم البحث فيه لأنه لا شأن للعقول بالبحث فيه، وهى قسمان : دنيوية وأخروية .

فمن الدنيوية وجود الملائكة عليهم السلام ، وهم مخلوقون من النور، وهم على وظائفهم فى السموات والأرض لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ومستقرهم فى الدنيا السموات ، وينزلون إلى الأرض بأمر الله . ومستقرهم فى الآخرة الجنة . وقد عرفت منهم أسماء على التعيين ، وهم جبريل ملك الوحى ومعاونوه ، وإسرافيل ملك النفخ ، وميكائيل ملك الأمطار والرياح والأرزاق . وتحت هؤلاء الملائكة العظام ملائكة لا يعلمهم إلا الله ، وملك الموت وأعوانه ، ومنكر ونكير لسؤال القبر ، ومالك ملك ملائكة النار من الخزنة وغيرهم .

ومنهم الكرام الكاتبون لحسنات العباد وسيئاتهم ، وهم الذين يتعاقبون عند صلاة الصبح والعصر .

وبالجملة يجب الايمان بجميع الملائكة على اختلاف درجاتهم ووظائفهم ، وأنهم جميعاً يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وأن منهم مقربين وغير مقربين ، ونكل العلم بالتفاضل بينهم وبين البشر إلى الله تعالى ، لعدم وجود نص قاطع بتفضيل أحدهما على الآخر .

ووجود الجن ، وهم مخلوقون من النار ، ومنهم المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ،وأنهم فى التكاليف كالإنس ، وأن الرسل إلى الإنس رسل إليهم ، وليس منهم رسل لقوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) وأما الآيات التى يدل ظاهرها على أن منهم رسلا كقوله تعالى (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى) فالمراد من بعضكم وهم الإنس .وهذا هو الحق .

وما داموا على خلقتهم فانا لا نراهم ، وهم يروننا ، لقوله تعالى فيهم (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) وقد أقدرهم الله على التشكل بالانسان والحيوان، وأن منهم من

يطير فى الهواء ويصعد إلى السماء ، ومتى تشكلوا رأيناهم على الصور التى يتشكلون فيها . وقد ثبت فى الأحاديث أنهم يتشكلون بالثعابين وغيرها من الحيوانات ؛ كما ثبت فى قتيل غزوة الخندق عند مسلم ، وحديث جن المدينة الذين أسلموا على عهد النبى ﷺ . وقد رأى بعض الصحابة منهم جماعة ، كحديث آية الكرسى فى الذى كان يسرق من الصدقة ، فأمسك به أبو هريرة ، وحديث الجنيّة التى أمسك بها بعض الصحابة وهى تسرق من تمره ، وحديث العفريت الذى تفلّت على النبى ﷺ وهو يصلى بالليل لمعاكسته ، وتغلب النبى ﷺ عليه فخنقه حتى سال لعابه ، وقال « لولا قول أخى سليمان : رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ـ لربطته بالسارية حتى يراه الناس » وحديث ابن مسعود فى اجتماعه ﷺ ليلة الجن بهم وقضاؤه فى الخصومات التى كانت بينهم ، وإجابتهم عما سألوا عنه من الشرائع والأحكام ، وقراءته عليهم سورة الرحمن بتمامها ، وردّهم على كل آية من آيها (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

وحديث أبى هريرة فى سؤالهم إياه صلى الله عليه وسلم الطعام لأنفسهم والعلف لدوابهم ، ونهيه إيانا عن

الاستنجاء بالعظم لأنه يكسى لهم لحماً بعد أن يؤخذ ماعليه.

وأنهم كالانس فى نعيم الجنة وعذاب النار يوم القيامة، لأن الله خاطب الثقلين فى سورة الرحمن بما خاطبهم به وسوّى بينهم ، فقال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) كما قال (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس [١] فلا تنتصران) وقال (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون [٢] فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً .وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً).

فبين تعالى فى آية الرحمن أن المؤمنين منهم يدخلون الجنة . وفى آية الجن أن الكافرين منهم حطب جهنم . وقد أعطى الله الشياطين منهم قدرة على الوسوسة للانس والجن فيوسوسون للانس فى قلوبهم ، وللجن بالكلمة ، وأن مايحصل منهم من الأذى إنما يكون من أشقيائهم ، كما يحصل من أشقياء الإنس للإنس . ولما لم يكن لنا قدرة على دفعهم بما ندفع به الإنس علمنا الله أن نتحصن منهم بماورد فى الكتاب والسنة من الكلمات التى تبعد شرهم عنا ،مع مايؤثر فيهم من حوادث الكون المغيبة عنا، كسماعهم صياح الموتى من الإنس فوق أعناق الرجال حين الذهاب بهم إلى المقابر .

---

(١) دخان . (٢) الظالمون لأنفسهم بالكفر .

ومن لطف الله أنه لم يجعل لهم سلطانا على المؤمنين المخلصين من عباده ، فلا يستطيعون أن يصلوا إليهم بأذى (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)

وقد ثبت فى الصحيح أن مع كل أحد من الإنس قريناً من الجن حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ليضله ولكن لا يمكنه الله أن يضر المؤمنين شيئا . وأن جريه من الانسان مجرى الدم إنما هو بالوسوسة . وقد يستطيع بعض الانس من السحرة الضالين أن يحضر من الشياطين من بينه وبينهم عهد ، وأن يأخذ منهم معلومات خفية عن أصحابهم من الانس ، ويضللون بذلك السذج من الناس بدعوى أنهم يستحضرون أرواح الموتى . وما أحد من المخلوقين بقادر على إحضار روح من أرواح الموتى بعد قبضها إلى يوم القيامة

ومما يجب الايمان به خروج دابة تكلم الناس بأنهم من الصالحين أو غير الصالحين ، وخروج الدجال الذى يدعى أنه رب الناس ، وأن المسيح بن مريم يقتله بأرض الشام ، وأن

الله يعيد المسيح إلى الأرض بين أهل الدنيا ، وأنه يحكم بشريعة نبينا ﷺ وأنه يمكث فى الأرض سبع سنين ، لا يعبد فيها إلا الله وحده من أهل الأرض .

كما يجب الايمان بطلوع الشمس من مغربها ، وخروج يأجوج ومأجوج من السد عندما يظهر المسيح بن مريم . وذلك كله قرب قيام الساعة .

ومما يجب الايمان به العقائد الآتية :

سؤال القبر وعذابه أو نعيمه ، والنفخ فى الصور النفخة الأولى ، ونزول ملائكة الموت على المؤمنين والكافرين لقبض أرواحهم ، وتبشير المؤمنين بنعيم الجنة والأمن من الفزع الأكبر ، وتبكيت غير المؤمنين بالكلم الخبيث المتضمن أن لهم نزلا من حميم وتصلية جحيم ، وبضربهم على وجوههم وأدبارهم لإخراج أرواحهم من أجسادهم قسراً وقهراً وعنفاً

قال تعالى فى شأن المحتضر : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم — أى فتقول له الملائكة : لك من الله روح أى رحمة ، وريحان ، أى رزق ، وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين أى فتقول له الملائكة أمان لك ، أنت من أصحاب اليمين

وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل[1] من حميم . وتصلية جحيم) أى فتقول له الملائكة : لك نزل من حميم، أى من ماء حار وتصلية جحيم ، أى تعذيب بعذاب الجحيم.

ولما كان هذا من الأمور المغيبة التى لا مجال للعقل فيها ، حذّر الله عباده أن يشكّوا فيما ذكر من خبر المحتضر لأن الشك فيه تنقيص لله تعالى بنسبة العجز إليه فقال (إنّ هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) .

وأما الأخروية ، فهى البعث بالنفخة الثانية من القبور وأول مبعوث من أهل الأرض هو نبينا ﷺ . والنشر ، وهو انتشار الخلق فى الأرض كالجراد ؛ والحشر ، وهو جمع الله الخلائق من جميع دواب الأرض التى وجدت فيها مدة الدنيا ، كأمم النحل والنمل والطير وأسماك الماء ودوابه . قال تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ـ أى كتاب إحصاء الخلائق وأعمالها ـ وكل شىء أحصيناه كتابا ـ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ـ ثم إلى ربهم يحشرون) أى تلك الأمم .

---

(١) النزل ما تعده للضيف عند نزوله بك

وقال تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثّ فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حشر الخلائق بجميع أصنافها فى صعيد واحد .

ومما يجب الايمان به الموقف ، وهو توقيف الله خلقه فى المكان الذى يحشرهم فيه مدة لا يعلمها إلا الله تعالى ، متروكين بلا سؤال عن شىء (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ثم تطوى السموات وتقبض أرض الدنيا ، ويحل غيرهما محلهما من سموات الآخرة وأرضها (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) .

ومما يجب الايمان به الحساب ، وهو تكليم الله عباده بلا واسطة ومحاسبتهم على أعمالهم وأقوالهم فى لحظة قصيرة دفعة واحدة بعد الشفاعة العظمى ، وأخذ الكتب بالأيمان للمؤمنين ، والشمائل للكافرين . وأول مايسأل عنه التوحيد ثم سائر الأعمال قال تعالى (ألاله الحكم وهو أسرع الحاسبين) والحساب قسمان : عرض ، وهو الحساب اليسير ومناقشة ، وهو الحساب العسير .

وتكون الشفاعة والحوض والصراط والميزان، والجزاء على الأعمال واقعة فى الموقف . فهى من العقائد التى يجب الايمان بها . كالايمان بأن من مات على التوحيد دخل الجنة مهما طال عذابه . ومن مات على الشرك خلد فى عذاب جهنم . كخلود المؤمنين فى نعيم الجنة حين يقول الله عز وجل « ياأهل الجنة خلوداً فلا موت . ويأأهل النار خلوداً فلا موت »

وتقع للمؤمنين فى الجنة رؤية الله تعالى . وقوله لهم : (اليوم أحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا) وهو رضوان الله الأكبر .

والجنة فوق السموات، والنار تحت الأرض وبحارها، وهما موجودتان الآن .

نسأل الله بفضله وكرمه أن يجيرنا من عذاب جهنم وأن يدخلنا دار كرامته . ويمتعنا فيها بالنظر إلى وجهه الكريم ورضوانه الأكبر . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم ؟